

## قراءة خاصة - 1

محمد دكروب\*

### قراءة راهنة في المسيرة المتعرجة للحزب الشيوعي الفلسطيني: رحلة في دهاليز الأرشيف السري للكومنترن

ماهر الشريف (جمع وتقديم). "فلسطين في الأرشيف السري  
للكومنترن". دمشق: دار المدى للثقافة والنشر، 2004. 496 صفحة.

#### (1) تمهيد

عندما وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها، كما يقال عادة، نجم عن هذا الحدث الكوني أوزار أخرى، تمد مفاعيلها وخرائطها إلى المستقبل، وإلى أنحاء كثيرة وبلاد عديدة، منها بلادنا العربية تحديداً. وقد تجسدت هذه "الأوزار الجديدة" في معاهدات واتفاقيات عقدت في السر وفي العلن، منها - مثلاً - الاتفاق الاستعماري السري الذي عُرف لاحقاً باسم "اتفاق سايكس - بيكو"، حيث تقاسم طواغيت الإمبريالية الجديدة، وقسموا، بلادنا العربية بين بريطانيا وفرنسا، مع السماح لروسيا ببعض النفوذ هنا وهناك، فكانت فلسطين - موضوع حديثنا هذا - من نصيب الإنكليز.

وأخذت مفاعيل هذا الاتفاق السري تطبق عملياً على الأرض، من دون ضجيج، بل برضى الأجلء من الزعماء العرب ومباركتهم. لكن عندما انتصرت ثورة تشرين الأول/أكتوبر الاشتراكية في روسيا، وكشف البلاشفة هذه الاتفاقيات الإمبريالية السرية، فوجئت شعوبنا العربية بها، وكذلك فوجئت شعوب كثيرة في العالم، وفوجئ بها حتى كثيرون جداً من الحكام العرب، الأصدقاء المخلصون لبريطانيا، وهم في عز ترويجهم لـ "صدق" وعود الحلفاء بالمساعدة على توحيد العرب في دولة واحدة مترامية الأطراف!!

ومن الأوزار العلنية الأخرى، مثلاً، الاتفاق/الجريمة بين بريطانيا والصهيونية العالمية على إنشاء "وطن قومي لليهود"، والقاضي بمنح المهاجرين اليهود، والمنظمة الصهيونية العالمية، الأرض الفلسطينية والمساعدة على ترحيل الفلسطينيين العرب عن أراضيهم وعن بلدانهم، وإقامة دولة إسرائيل فوق هذه الأرض، "الموعودة من الله!!" - بحسب الأساطير اليهودية التي تقول إنها "أرض الميعاد!!" - وعرف هذا الاتفاق/الجريمة باسم "وعد بلفور" (لكن قوافل المهاجرين اليهود كانت قد بدأت بالتدفق على فلسطين حتى قبل صدور هذا الوعد الاستعماري العنصري.. وبدأت مجازر التذبيح والترحيل ضد الفلسطينيين العرب، حتى قبل أعوام عديدة من صعود النازية في ألمانيا وارتكابات هتلر والتعصب القومي النازي ضد اليهود، في المذابح والمحارق التي عُرفت لاحقاً باسم "الهولوكوست"، والتي استعملت غطاءً دامياً لتبرير الاستيلاء الصهيوني على فلسطين باستخدام الأساليب النازية نفسها في التقتيل والتذبيح وارتكاب "هولوكوستات" جديدة وعديدة ضد السكان الفلسطينيين العرب هذه المرة!!).. في حين كانت دول أوروبا جميعها تتفرج، ثم تساعد وتغطي التذبيح والترحيل، تمهيداً لإقامة "دولة إسرائيل"، كقوة استعمارية ضاربة ومهاجمة، وكمبرر أيديولوجي لاغتصاب أرض الشعب الفلسطيني، تكفيراً عن ذنوب وجرائم دول أوروبا بالذات، ضد اليهود في دول أوروبا نفسها!!

لكن، في المقلب الآخر، كان من النتائج المباشرة وغير المباشرة لتلك الحرب العالمية الأولى هذه، أن قوى الثورة الشعبية، العمالية والفلاحية، في روسيا استطاعت أن تنفذ من بين تناقضات القوى المتحاربة وتنجز حربها هي بانتصار ثورة تشرين الأول/أكتوبر الاشتراكية، سنة 1917، وتغير مجرى تاريخ العالم لأعوام كثيرة لاحقة.

هذه الأحداث، ذات الطابع الكوني، مارست تأثيرها المباشر - كما سنرى - في الأحداث والتطورات التي سنحاول قراءتها عبر هذه الصفحات النادرة التي ضمها هذا الكتاب المهم الذي نقوم بقراءة خاصة له، والذي هو الأول من نوعه في بلادنا وفي غيرها.

في ذلك الزمان، خلال العقد الثالث من القرن الماضي، كانت فلسطين، الواقعة تحت سيطرة الانتداب الاستعماري الإنكليزي، مكاناً يقصده العديد من المثقفين والعاملين العرب، بشكل إفرادي، للعمل - باعتبار أن العديد من البلاد

العربية كان كأنه ساحة عربية عامة لم تثبت بينها بعد الحدود والسدود - وكانت الآمال كبيرة باقتراب التحقق الرسمي لدولة الوحدة العربية، بحسب "الوعود" الإنكليزية البراقة.. فكان المثقفون العرب، ومنهم مثلاً مفكرون ومناضلون لبنانيون من عيار الكتاب المفكرين: رثيف خوري، ويوسف إبراهيم يزبك، وفؤاد الشمالي، وسليم خياطة، وغيرهم، ينتقلون بين لبنان وفلسطين، وبالعكس، فيندمجون في الحياة الثقافية السياسية والنضالية للشعب العربي الفلسطيني، إضافة إلى كثيرين من طلائع المناضلين السوريين ضمن المكونات الأولى لحركة التحرر العربية.

كان الشكل الفردي هو السمة الأساس لهذا الوجود العروبي، في حين كان الشكل الآخر، الجماعي المنظم والمخطط له، هو طابع التدفقات المتتالية لقوافل المهاجرين اليهود على "أرض الميعاد"، برعاية إنكليزية وحماية إنكليزية، في سياق عملية بطيئة أولاً، لكن دؤوبة، لاحتلال الأرض واحتلال العمل، تحضيراً لما سوف يأتي.. وسيبدو هذا الزحف - الخفي في هدفه، والظاهر في تكاثره - واضحاً خلال كثير من صفحات هذا الكتاب المهم، والمكتوب بأقلام أكثرها من اليهود وبعضها من العرب.. وهم جميعاً مشاركون في حركة نضالية يسارية وشيوعية، وعبر رسائل سرية إلى المركز الرئيسي للجنة التنفيذية للكونمترن في موسكو. وكان الكومنترن بمثابة المركز الأساس لحزب شيوعي عالمي، أو هو يشكل القيادة الموحدة للأحزاب الشيوعية التي كانت تتوالد في مختلف دول العالم.

وكان الحزب الشيوعي الفلسطيني، الذي بدأت عملية تكوّنه مع بدايات عشرينيات القرن الماضي، واحداً من الأحزاب التي انتسبت إلى الكومنترن (أو الأممية الشيوعية). وسرى عبر هذه الرسائل السرية عناصر الخصوصية والتعقيد في تكوين هذا الحزب، والطابع الفريد للصراعات "القومية" داخله، منذ بدايات تكوّنه، ونشاطاته في الساحة الفلسطينية، والتحويلات في شعارات هذه النشاطات وترابط فعاليتها مع بعض المكونات الشيوعية الأولى في بعض البلاد العربية، ودور قيادات منه في هذه المجالات بتوجيهه وتكليفه من قيادة الكومنترن في موسكو.

في الوقت نفسه، كانت الصراعات الداخلية في هذا "الحزب الفلسطيني" بين يهود وعرب، ويهود ويهود، بشأن شعارات الحزب ومواقفه، ومدى توافقه أو تعارضها مع النزعات القومية لهؤلاء وأولئك.. كانت تطرح تساؤلاتها عن مدى إمكان تطور هذا الحزب وانتشاره وامتداد نفوذه، في بلد تتعاظم الصراعات فيه بين سكان عرب أصليين ومهاجرين يهود طارئین، وتندفع الصراعات في اتجاه معارك الحسم الطاحنة!

فهل في إمكان حزب ينتمي أفراداه إلى المجموعتين القوميتين المتناحرتين أن يغلب أعضاؤه نزوعهم الشعبي والأممي في سلوكهم، ويجنبوا حزبهم خطورة أن تمتد الصراعات القومية إلى داخله، في شكل أزمات ومآزق مستمرة تهدد الأساسي في تكوينه الفكري الأيديولوجي المفترض أن يكون نقيضاً للطابع "القومي" التعصبي لاصطفافات القوى على الساحة الفلسطينية كلها؟

\* \* \*

بذل الكاتب الباحث ماهر الشريف جهداً كبيراً - على الصعيدين الأكاديمي والعملية - في إعداد هذا الكتاب ووضع هذه الصفحات النادرة في أيدي الباحثين والمؤرخين والقراء العرب عامة، فيطلعون عبرها على أحداث ووقائع ومسارات، في تاريخنا الحديث، كان كثير منها بمثابة الأسرار، وكثير منها أيضاً مغلفاً بالغموض والتعقيد، وهي كلها تضاف إلى المراجع المهمة لقراءة المسارات الأولى للأحداث والتحويلات الأساسية التي أدت لاحقاً إلى اقتلاع شعب من أرضه، وإقامة دولة عدوانية إسرائيلية مكان شعب كان يناضل، فوق أرضه، من أجل استقلال وطنه وإقامة دولة فلسطينية ديمقراطية.. إضافة إلى كون هذه الصفحات تشكل واحداً من المراجع الأساسية في التاريخ للحركة الشيوعية خلال تكويناتها الأولى في فلسطين، وما يتصل بها من تاريخ الحركة الشيوعية والتحريرية في مصر وسورية ولبنان، خلال تلك الفترة الجينية الأولى.

ولا بد من القول إن جهد ماهر الشريف لا ينحصر في "جمع وتقديم" هذه الرسائل - كما كتب على الغلاف - بل يتجلى في جهد الترجمة، والتدقيق، والتحقيق، والإشارات التوضيحية الأساسية المهمة لغوامض وتواريخ، هنا وهناك، وكذلك في التوصل إلى كشف العديد من الهويات والأسماء الحقيقية لمناضلين ومدنيين ومسؤولين كان الواحد منهم يستخدم في المراسلات والنشاطات أكثر من اسم واحد، بحيث يكاد الشخص نفسه ينسى اسمه الحقيقي بين سلسلة من أسمائه السرية، وهذا وحده يتطلب جهداً مضمناً، لكنه يساعد بالتأكيد في التفهم الأدق لهذا الحدث أو ذاك.

لم يلجأ ماهر الشريف إلى تصنيف هذه الرسائل وفق الموضوعات التي تعالجها، أو بحسب الهيئة التي وضعتها، بل نشرها تبعاً للتسلسل التاريخي لصدورها، وهذا هو الإجراء الصحيح لمثل هذه المراسلات التي تتضمن الواحدة منها أكثر من موضوع واقتراح، والتي يبين تسلسلها هذا حركة تطور الأحداث والمواقف في تتابعها وتحولاتها.. أما بالنسبة إلى القراءات البحثية في هذه المراسلات، فإن تصنيف موضوعاتها وكتابها يعود إلى الهدف الذي يضعه الكاتب مهمة له.

في قراءتنا التالية في هذه الرسائل، رأينا أن نتناول عدداً من الموضوعات نرى أهمية لها، سواء بالنسبة إلى تلك المرحلة (1920 – 1937) أو بالنسبة إلى ما تحمله من راهنية في إضاءة تلك الأحداث نفسها، وبعض ما سبقها وما لحقها من تداعيات متمادية حتى يومنا هذا، وأبعد..

سأحاول جاهداً أن أوجز في التحليل والتعليق والاستنتاج، وأن أورد – في المقابل – العديد من فقرات هذه الرسائل، لكن في سياق من التوليف يربط بين النصوص والموضوعات، بما أظن أنه قد يعطي بعض النصوص معناها، في سياقها التاريخي، فلا يبقى النص مقطوعاً عن ماضيه وما قد أدى – لاحقاً – إليه.

## (2) من الاتكاء على توجيهات الكومنترن

### إلى الإفراط في التفاؤل الوهمي

في البدايات، وخلال مرحلة المخاضات المتعثرة لولادة حزب شيوعي فلسطيني، كان الشيوعيون الأوائل في حيرة بين أن يكونوا حزباً هو مجرد فرع فلسطيني للأمية الشيوعية (الكومنترن)، وبين أن يكونوا حزباً شيوعياً فلسطينياً أممياً يؤالف بين أمميته هذه ومتطلبات الواقع المحلي، ومن ناحية أخرى: ربما لم يكن الشيوعيون الأوائل في فلسطين يرون تناقضاً أساسياً بين أن يقتصر تشكّل هذا الحزب على مجموعة أعضاء يهود أكثرهم من المهاجرين، وبين أن يكون هذا الحزب في بلد أكثرية الساحقة من المواطنين العرب.. (وهذا الواقع التناقضي سيلقي بظله على طابع الصراعات داخل الحزب، وعلى المسار المستقبلي له، وعلى جماهيريته خاصة، وعلى مصيره..).

وانطلاقاً من هذه الحيرة وضبابية المسار، ومن الاقتناع بالجدد الثوري المفترض أن يحمله أي حزب شيوعي، في أي بلد من بلاد العالم، رأى القياديون الأوائل في هذا التشكّل اليساري الأممي، أن من الطبيعي، والضروري، الاتكاء الكلي تقريباً على مركز الكومنترن في موسكو، ليزودهم بالتوجيهات والخطط والمهمات.. وحتى التكتيكات العملية!! [2] في مذكرة من "حزب الشيوعيين الفلسطينيين" إلى اللجنة التنفيذية للكومنترن، في موسكو (بتاريخ 17 تشرين الثاني/نوفمبر 1922) مطلب غريب يعبر عن توجه خطر سيكون بمثابة "الخطيئة الأصلية".. فالبند الأول من هذه المذكرة يطلب من الكومنترن: "العمل على ضمان إرسال توجيهات محددة من اللجنة التنفيذية للكومنترن حول أهم مهمات الحزب وتكتيكاته تجاه القضايا الرئيسية!"\* (ص 53).

.. وكأن الذي صاغ هذه المذكرة، أو هذا الطلب، يعتبر أن اللجنة التنفيذية للكومنترن – التي هي في موسكو – يجب أن تأخذ على عاتقها هي تحديد مهمات الحزب، الذي هو في فلسطين، ووسط شعب آخر، وواقع اجتماعي مختلف!! وسوف يظهر، لاحقاً، أن هذا التوجه الحزبي المحلي، والتوجيه القيادي المركزي للكومنترن، في موسكو، قد حكما تقريباً مسار قيادات معظم الأحزاب الشيوعية، في هذه المنطقة، منذ تلك البدايات وإلى آمام طويلة!! ولعلنا، من هنا، نستطيع أن نرى البذور الأولى للطروحات الطوباوية البعيدة عن الواقع المحلي، في برامج هذه الأحزاب، الأمر الذي ساهم في غربة بعضها عن ناس بلادها، والعزلة التي أصابت العديد من هذه الأحزاب في كثير من المراحل..

وهذان "التوجه والتوجيه" قد حكما، لاحقاً، صراعات عدد من هذه الأحزاب، إماً للتقلت من هذه القبضة المركزية، ووضع البرامج السياسية الاجتماعية باستقلالية مستمدة من متطلبات الوضع الداخلي المحلي، أساساً.. وإماً للتوفيق الصعب بين توجيهات الكومنترن وتدخلاها، وبين متطلبات الوضع الداخلي في واقعه المحلي!! لكن في مقابل هذه الاعتمالات، داخل بعض هذه الأحزاب، كان سلاح الاتهام بـ "الانحراف والتحريفية" وغيرهما، هو السيف المسلط فوق الرؤوس القيادية لهذه الأحزاب.. "المارقة"!!

ولعل في عمق هذه الممارسات التسلطية البيروقراطية واستفحالها، كان يكمن أحد أهم الأسباب القوية التي أدت – لاحقاً – إلى تهاوي أو تفتت العديد من هذه الأحزاب، بعيداً انهيار الاتحاد السوفياتي!

إنّما، كان انتظار التوجيهات (وما يشبه الأوامر) هو القاعدة، أمّا الارتباط الحقيقي بالواقع المحلي فكان هو الاستثناء، الضروري.

• مظهر آخر من مظاهر القفز الطوباوي فوق الواقع المحلي، وترديد الطروحات العامة والتصورات الأكثر عمومية، بصدد مستقبل مفترض، يتجلى في ذلك التفاؤل المفرط والتشدد المفرط والحسم القاطع، والوحيد الجانب، لطرح شعارات مستقبلية جداً، كأنها مهمات قريبة ومباشرة جداً، وضمن واقع محلي متخلف، شبه إقطاعي وشبه رأسمالي، وغير مهياً أبداً، لا موضوعياً ولا ذاتياً، لا قيادياً ولا شعبياً، لمباشرة مسيرة ما، نحو إقامة "نظام شيوعي"، مثلاً، ومرة واحدة!!

ففي إعلان مبادئ تنظيم الحزب الشيوعي الفلسطيني (يعود، ترجيحاً، إلى سنة 1920)، ولا يتضمن أية مهمات محلية خارج عموميات الكلام، نقرأ هذا البند التعليمي، القاطع والحاسم:

"إن الوسيلة لذلك [لإقامة النظام الشيوعي] هي الثورة الاشتراكية العالمية، التي تقيم ديكتاتورية البروليتاريا. ويؤمن الحزب، إيماناً عميقاً، بأن انتزاع السلطة من أيدي الأسياد الحاليين لا يتم عن طريق الانتخابات أو العمل البرلماني الدستوري، وإنما يتم فقط عن طريق الانتفاضة المسلحة وثورة الجماهير والشعوب المضطهدة" (ص 41). مثل هذه المبادئ، العامة جداً، والأهداف البعيدة المدى جداً.. كان يرفعه، بكثير من الزهو الطوباوي، العديد من الجماعات الشيوعية الأولى، مع بدايات القرن الماضي، بتأثير - ربما - من دوائر الكومنترن، أو رغبة في استرضاء قيادات هذه الدوائر، أو انسباقاً مع الأحلام الأولى وإيهام النفس بالقدرة على تحقيقها، وتبشير المحازبين الأوائل من المناضلين الرومنطقيين والمقدمين - والذين لم يتجاوز تعدادهم، في تلك الفترة، بضع مئات! - بنصر قريب، قريب!

لكن اللافت للنظر أن اليساريين والشيوعيين، الأوائل، من اليهود في فلسطين، كانوا يشنون، بجرأة ومن دون تحفظ، حرباً إعلامية سياسية وفكرية ضد الصهيونية وأهدافها، وكيف أنها تخطط وتمهد لترحيل العرب الذين هم الأكثرية عن بلدهم، وللتهود الكامل للبلد.

هنا، أيضاً، كانت طروحات هؤلاء الشيوعيين الأوائل تتصف بالإفراط في تفاؤل وهمي بأن الحركة الصهيونية تنهوى، لا مستقبلاً وإنما خلال تلك الفترة بالذات من عشرينيات القرن الماضي، حتى قبل قيام إسرائيل بربع قرن!!

ففي قرار صادر عن اجتماع اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفلسطيني (5 آذار/مارس 1924) هذه البنود:

- "يتسارع أقول الصهيونية من الناحيتين السياسية والاقتصادية".

- "إن منظمة الهستدروت السائدة داخل الحركة العمالية اليهودية في طريقها إلى الانحلال".

- "تنتشر شعاراتنا وتصبح جماهيرية في كافة أرجاء البلاد!" (ص 90).

.. فهل تتكشف هذه البنود - على الرغم من معاداتها الصريحة للصهيونية - عن قصر نظر مفرط بحيث لا يرى واضعوها في أي اتجاه تتحرك الأحداث على أرض الواقع؟.. أم أن هذا الوهم الذاتي يدخل، هنا، في باب إيهام الدوائر المعادية للصهيونية في الكومنترن بهذا "الواقع"، غير الواقعي؟

أكثر من هذا.. لنقرأ معاً هذه الفقرة الواردة في قرارات المؤتمر السادس للحزب الشيوعي الفلسطيني، في نيسان/أبريل - أيار/مايو 1926 (وكانت الأكثرية الساحقة في الحزب من اليهود):

"إن الصهيونية تواجه واحدة من أزمتها القاسية. إن إفلاسها يعني إفلاس فكرة تحويل فلسطين إلى بلد يهودي، ويعني أن مستقبل تطور الأقلية اليهودية، التي تمثل 16 في المئة من سكان البلاد [كان هذا في سنة 1926]، هو في خطر، ما لم تتحرر هذه الأقلية [اليهودية] من تأثير الأفكار الصهيونية ومن خداع الإمبريالية" (ص 150).

لا شك في أن هذه الرؤية تعبر عن موقف أممي إنساني يتجلى في عدم خضوع يهود يساريين لنزعة التعصب القومي، الصهيوني، انطلاقاً من النظرة الأممية نفسها، ومن الاقتناع بضرورات الترابط والتفاعل مع المحيط العربي العام، والتقارب مع العرب الذين يشكلون، هم، أغلبية السكان.

لكن هذه الرؤية نفسها تشير، من جانب آخر، إلى قصر النظر في تبين حقائق الوضع، وغياب الرؤية الواقعية، وعدم التنبه - ربما - للمخططات الحقيقية المستقبلية للأهداف الصهيونية التي أخذت معالمها تظهر بالتدرج، ومنها: ترحيل السكان العرب بالقوة، وبالإرهاب، والسيطرة على فلسطين، وتالياً: تهويدها.. وإلاً، فهل يعقل أن الذين صاغوا قرارات المؤتمر كانوا يرغبون - ربما - في عدم رؤية هذه الحقائق والمخططات الصهيونية؟

• وتتجلى ظاهرات التفاؤل المفرط، وطرح الشعارات الكبيرة جداً، وغير الواقعية، وسهولة الشطح التخيلي، في رسالة مؤرخة 25 تشرين الأول/أكتوبر 1931، بعث بها الشيوعي العربي "أحمد"، باسم الحزب، إلى شخصية قومية يسارية، يدعو فيها القوميين اليساريين العرب إلى النضال معاً ضد الإمبريالية والصهيونية، ولتحقيق استقلال البلاد، ويطلعه على أهداف الحزب للاشتراك معاً من أجل النضال في سبيلها، ومن الرسالة هذه البنود:

– "إن الهدف الأول الذي يناضل الحزب من أجله هو طرد الإمبرياليين والصهيونيين من فلسطين، وضمان استقلال البلاد التام وإقامة حكومة العمال والفلاحين!!"

– "ويناضل الحزب من أجل نقل أملاك الدولة وخائني استقلال البلاد إلى أيدي الشعب بإشراف حكومة العمال والفلاحين!!"

– "كما يناضل الحزب من أجل تقديم الدعم إلى الشعوب العربية الأخرى في نضالها لطرد الإمبريالية، وتحرير هذه الشعوب من نيرها، وإقامة حكومات العمال والفلاحين!!" (ص 321).

ولعله يحق لنا الاستنتاج أن التكرار الدائم للتفاؤل المفرط بإمكان تحقيق هذا الشعار التخيلي الفضفاض (إقامة حكومة العمال والفلاحين) خلال ثلاثينيات القرن الماضي، لم يأت قط – نتيجة دراسة الواقع العيني في البلاد، وموازين القوى، أو دراسة الواقع الحقيقي لقدرات الحزب ومدى نفوذه الفعلي وانتشاره بين الجماهير.. وإنما جاء، في تلك الفترة تحديداً، استجابة تملقية (أو وهمية) لشعار – غير واقعي أيضاً – رفعته دوائر معينة في قيادة الكومنترن، ووقعت الحركة الشيوعية العربية في مطبه.. على أن هذا الشعار (حكومة عمال وفلاحين) سحب – لاحقاً – من التداول، لأن الحياة نفسها عندنا، ودرجة تطور مجتمعاتنا، وكذلك لأن أكثر الفرق الحزبية نفسها، على أرض الواقع والممارسة النضالية، هي التي رفضته وبينت لواقعيتها.

وسيتبين لنا أن الميل العام لدى العديد من القيادات الحزبية في فلسطين (سواء كانت هذه القيادات عربية أو يهودية).. وكذلك لدى قيادات كثيرة في بلاد عربية أخرى، كان الأخذ بالشعارات التي تصوغها دوائر الكومنترن، فتتكئ عليها بما يريحها من تعب دراسة الواقع العيني المحلي، الأمر الذي يبعد بها عن التواصل الحميم والواعي مع نبض الشارع الشعبي والتفاعل معه ومع المشكلات الأساسية – الواقعية – للناس.

### (3) الاتجاه نحو الجماهير العربية

#### وشعارات النضال ضد الصهيونية وضد الهجرة

بالحاح من قيادة الكومنترن، وكذلك إلحاح الواقع المحلي وتساعد نضالات الجماهير العربية، التي تشكل الأكثرية الساحقة من السكان، عمدت قيادة الحزب إلى طرح مهمات أساسية أمام أعضائه ومسؤولي الفرق والمنظمات، بالتوجه نحو السكان العرب الذين يشكلون هم أصحاب البلد الحقيقيين، ولا معنى لحزب شيوعي في فلسطين من دون أن يشكل الأعضاء العرب ركناً أساسياً، بل الركن الأساسي في تركيب الحزب، في القاعدة وفي القيادة على السواء.. كما صعد الحزب توجهه النضالي ضد الصهيونية، وكذلك ضد تدفقات الهجرة اليهودية على فلسطين، وإن شابت هذه الشعارات ملابسات ونقاشات وخلافات، وحتى اتهامات بـ "معاداة السامية" بين يهود ويهود في قيادة الحزب، كما سنبين هذا لاحقاً.

• في تقرير عن أوضاع الحزب الشيوعي الفلسطيني (25 آذار/مارس 1924) تشكو القيادة أن أعضاء الحزب متحدرين إليه من أحزاب شيوعية أوروبية، وكذلك من حيث كانوا أعضاء في الحزب الشيوعي اليهودي (بوعالي تسيون).. وتعلن القيادة أن هؤلاء الرفاق "تعوزهم القدرة على إقامة علاقات بالجماهير العربية، القادرة وحدها على خلق حركة ثورية في المشرق" (ص 94).. وهذا التناقض المأزقي، بين واقع أن جسم الحزب مكون من رفاق يهود، وبين واقع أن الجسم الأساسي لفلسطين مكون من السكان العرب، ظل يمارس تأثيره الصراعى داخل الحزب نفسه، ولأمد طويلة، وخصوصاً عندما بدأ كثيرون من الرفاق العرب ينتسبون إلى الحزب للنضال، معاً، ضد "الإمبريالية البريطانية والصهيونية الفاشية".. فقد ظل التناقض يمارس فعله الصراعى ولو بتفاوت بين الشدة والهدوء، يغور حيناً في حومة المعارك ضد السلطة، وينفجر أحياناً لأسباب متنوعة متعددة.

لكن الحزب ظل يشدد، ولأمد طويلة، على خوض النضال المشترك ضد التحالف البريطاني الصهيوني وضد تنظيم هذا التحالف لعمليات تجريد السكان العرب من أراضيهم.

ففي تقرير من قيادة الحزب الشيوعي الفلسطيني (9 كانون الثاني/يناير 1923) مرسل إلى الكومنترن، يكشف هذه الوقائع: "... بالاستناد إلى الحراب البريطانية، تسعى العصابات الصهيونية في فلسطين إلى تجريد سكان البلاد الأصليين [أي: العرب]، من العمال والفلاحين، من أراضيهم، وإلى سلخهم عن جسم المشرق الثوري المتنامي، لتدعيم سلطة البورجوازية العالمية وإقامة قاعدة لحماية الإمبريالية البريطانية المتوحشة". كما يكشف التقرير أن البريطانيين والصهيونيين "جعلوا سكان البلاد الأصليين يعيشون في أشد حالات البؤس والفقر والبطالة في الوقت الذي يجلبون فيه إلى فلسطين مهاجرين جدداً وأسلحة جديدة لدعم التطلعات الأنكلو - صهيونية" (ص 60 - 61). هذا التقرير المهم، والرأي، لا يكشف فقط عن الظلم الذي يوقعه التحالف البريطاني - الصهيوني ضد السكان العرب، ويعبر عن تعاطف الحزب مع السكان العرب، بل يكشف أيضاً عن بدايات التمهيد، العملية والدائمة، لانتزاع وطن كامل من شعبه وإقامة دولة مجلوبة فوق أرض مغتصبة، وهي الدولة التي أقيمت بعد 25 عاماً من تاريخ كتابة هذا التقرير، وأطلقوا عليها اسم "دولة إسرائيل".

فعلى الرغم من ذلك التناقض المأزقي الذي أشرنا إليه، استطاعت قيادة الحزب الشيوعي الفلسطيني - في تلك الفترة، وكان في بدايات تشكله - أن تحدد وجهة النضال الأساسية ضد التحالف الأنكلو - صهيوني، من حيث أن جوهر هذا التحالف كان يضم القرار الإمبريالي الحاسم بترحيل السكان العرب، وتالياً تحقيق "وعد بلفور" البريطاني بإقامة وطن قومي لليهود فوق أرض فلسطين.

وسيرفع الحزب، لاحقاً، وعلى الرغم من تناقضاته وصراعاته الداخلية، شعارات معادية لـ "وعد بلفور" بالذات، بما سيتسبب باشتداد الصراعات داخله، ولا سيما بين يهود ويهود في قيادته.

وتتواتر في الرسائل المتبادلة تعابير مثل: "الصهيونية الفاشية"، أو "الفاشية الصهيونية"، أو "فاشية الصهيونيين". وهذه التعابير تشير إلى جوهر الصهيونية من حيث هي حركة تعصب، فاشي ونازي، حتى قبل سيطرة النازية الهتلرية على الحكم في ألمانيا. فالأيديولوجيا النازية تجمع بين خرافات مثل: الصفاء العرقي، والتفوق العنصري، و"شعب الله المختار".. بما يبرر ويشرع ما هو أهم من هذا كله: حق النازية الجديدة (الصهيونية) في اغتصاب الأرض والثروات والبلد.

وتوافقاً مع هذه الصيغ الكاشفة نفسها بشأن الجوهر الفاشي للصهيونية، كان يتنامى توجه في قيادة الحزب - وبإلحاح متواصل من قيادة الكومنترن في تلك الفترة - نحو الجماهير العربية، سواء في تأييد نضالات الفلاحين العرب ضد السلطة البريطانية والعصابات الصهيونية، أو في الجهود المبذولة في اتجاه التعاون مع الأحزاب والمنظمات الاستقلالية العربية.. (على أن هذه المواقف إذا كانت تساعد على وجود أقوى للحزب في الأوساط العربية، فقد كانت تجابه، من ناحية أخرى، بمعارضة أو تقليص أو انعدام فعالية الأعضاء اليهود في الحزب). وكذلك، ففي أكثر الرسائل والقرارات الحزبية - لتلك الفترة - كانت تبرز معارضة الحزب الشيوعي الفلسطيني لتدفقات الهجرة اليهودية على فلسطين، وتتصاعد حملته "ضد سياسة الاستيطان الصهيونية" (ص 120).

#### (4) في الخلافات والصراعات بين نزعتين "قوميتين"

##### في حزب واحد، شيوعي

.. فماذا عن العلاقات والتميزات والصراعات داخل الحزب الشيوعي الفلسطيني؟

• في واحد من أوائل بيانات الحزب الشيوعي الفلسطيني، يعود إلى الفترة التأسيسية سنة 1920، كلام عن العمال اليهود، فقط، وعن يهود العالم كله "كشعب تاريخي" يحافظ على وحدته على مساحة العالم، وأن الحزب الشيوعي الفلسطيني سيصبح الهيئة القيادية المركزية لكل الاتحادات الكادحة اليهودية... وهو يطمح إلى تأسيس مركز عالمي لكل البروليتاريا اليهودية" (ص 42).

أي أن الحزب الشيوعي الفلسطيني كان، في البداية، يعتبر نفسه - بحسب هذا البيان - أنه حزب لليهود فقط، وكأن لا وجود، في فلسطين هذه، لسكان عرب هم أهل البلد الحقيقيون، هم الأكثرية المطلقة في البلد، هم أصحاب القرى والمدن - كما سيأتي لاحقاً في بيانات واقعية للحزب - وهم الشعب التاريخي لهذا الوطن الفلسطيني منذ آلاف السنين.

تلك الرؤية الفوقية والقاصرة، معاً، ستكون أساساً لخلافات وتميزات وصراعات متواصلة فيما يتعلق بالضرورة الحتمية لاتساع الحزب لأعضاء من السكان العرب.. ولاحقاً فيما يتعلق بمعركة "التعريب" التي تعني - وفق

توجيهات الكومنترن - ضرورة أن تكون أكثرية أعضاء القيادة، في الحزب الشيوعي الفلسطيني تحديداً، من العرب، كما تعني أن يتوجه الحزب نحو الجماهير العربية بصفة كونها هي الأكثرية، وهي الجسم الحقيقي للبلد. وستتغير جذرياً ظروف وطروحات الحزب وشعاراته الانعزالية تلك، ارتباطاً بضرورات الواقع أساساً، وبإلحاح من قيادات في الكومنترن، على مدى عدة أعوام، ابتداء من أواسط العشرينيات ولأعوام طويلة بعدها.

وسوف يتبين لاحقاً، من خلال الرسائل والبيانات، أن عناصر من حزب "بوعالي تسيون"، الذي كان يعتبر نفسه حزباً عالمياً للشيوعيين اليهود، كانت تسيطر على قيادة الحزب الشيوعي الفلسطيني خلال الفترة التأسيسية (1919 - 1920) من دون أن تتخلص من تأثيرات النزعات الصهيونية أو "القومية اليهودية".. وفي رسالة من جوزيف برغر إلى الكومنترن (أذار/مارس 1923) وقائع عن الصراع داخل الحزب ضد تأثيرات أفكار "الحزب الشيوعي اليهودي: بوعالي تسيون"، ويشكو أنه يوجد في الكومنترن من يستمع إلى آراء هذا الحزب، ولا يهتم بآراء "حزب الشيوعيين الفلسطينيين"، بل لا يتق به ويتوجهاته الجديدة نحو السكان العرب (ص 95).

• في فقرة من رسالة إلى الكومنترن (28 آب/أغسطس 1929) استنتج يثير الدهشة، وأكثر: "برزت في الحزب، بين عدد من الرفاق، مشاعر معادية للسامية، عبرت عن نفسها في الدعوة إلى الاتحاد مع العرب حتى في تلك الحالات التي يسرون فيها خلف شعار (ذبح اليهود). وتسود هذه المشاعر بين الرفاق من أصحاب التوجهات اليمينية" (ص 235).

هذه أول مرة يستخدم فيها، خلال هذه الرسائل، اصطلاح معاداة السامية!!.. لكن الفقرة لا توضح صراحة من هم هؤلاء الرفاق "أصحاب التوجهات اليمينية"، هل هم عرب أم يهود؟.. على أن ما يفهم من هذه الفقرة، أنهم من اليهود الذين يدعون إلى "الاتحاد مع العرب".. بما يشير إلى أن هذا الاتهام التقليدي، والإرهابي، يسلط أيضاً على اليهود أنفسهم لا على "الآخرين" فقط.. إضافة إلى أن استخدام هذا الاصطلاح الاتهامي - الخرافي، والنازي المضمون - يشكل واحداً من مظاهر الصراعات "القومية" حتى بين يهود داخل حزب شيوعي!!

ومن ظاهرات الصراع "القومي" داخل الحزب، ما كشفت عنه مذكرة من اللجنة المركزية للحزب (في 31 كانون الأول/ديسمبر 1929) إلى القسم الشرقي في الكومنترن، إذ تحمل المذكرة ردوداً على مذكرة أرسلها "شامي" (أي: إيلي تيبير) إلى الكومنترن، ينتقد فيها التوجه المعادي للصهيونية في قيادة الحزب، ويقول: "إن النضال ضد الصهيونية يجب أن يقتصر على تعزيز عمل الرفاق اليهود بين الجماهير العربية".. بما يؤدي، عملياً، إلى إضعاف نضال الحزب ضد الأيديولوجيا الصهيونية.. فتردّ عليه مذكرة قيادة الحزب بالقول: "إن تصفية معاداة الصهيونية في عمل الحزب لن تعني سوى الاستسلام أمام الصهيونية، والتخلي عن الرصيد الذي كونه إلى الآن في النضال ضد الصهيونية" (ص 246).

وكان صراع الآراء والنزعات هذا، داخل الحزب، بشأن الموقف من الصهيونية، يترافق مع جهود القيادة من أجل زيادة تنسيق الأعضاء العرب في الحزب وكوادره وفي القيادة، وذلك لارتباط هذا التوجه بمستقبل الحزب في بلد أغلبيته عربية.. واستجابة، كذلك، لإلحاح قيادة الكومنترن في ضرورة تكتيف الجهود في هذا السبيل، والإصرار على السير في اتجاه تحقيق خطة التعريب.

ولم تقتصر حملة الحزب على الحركة الصهيونية، بل طاولت التطرف في كلا الجانبين.. ففي رسالة إلى الكومنترن (12 شباط/فبراير 1929) تعلن القيادة أن "المهمة الرئيسية المطروحة أمام الحزب، على الصعيد السياسي، تتمثل في تنظيم حملة تحريضية واسعة تستهدف الزعماء الصهيونيين والزعماء القوميين العرب، وتطاول الإصلاحيين في الهستدروت وفي الأحزاب العمالية الصهيونية" (ص 224).. أي حيث ترى القيادة نزعات التطرف والتعصب القومي، هنا وهناك.

لكن قيادة الحزب لم تكن لتخلو من عناصر تمارس، هي نفسها، التعصب القومي، في أشكال متعددة من التبريرات و"التنظيرات":

- في رسالة من حيدر (أبو زيام) بتاريخ 17 نيسان/أبريل 1930، يستنكر سلوك اللجنة التنفيذية للكومنترن، الذي يتجلى في "عدم الثقة الأبدية بقيادة حزبنا".. وفي الرسالة هذه نزوع يهودي وما يشبه الحذر من الانحياز إلى العرب، في قيادة الكومنترن، تحت ستار التعريب (ص 268).

- وفي رسالة من نداد (ناحوم ليشنسكي)، بتاريخ 1 حزيران/يونيو 1930، إشارات إلى أن الإيقاف الموقت للهجرة اليهودية إلى فلسطين أحدث احتجاجاً من الدوائر الصهيونية (وهذا طبيعي) وارتياحاً في دوائر الحركة الوطنية العربية (وهذا طبيعي أيضاً).. لكن في الرسالة فقرة تكشف موقفاً كامناً لدى بعض القادة اليهود في

الحزب، ينتقدون نداء عربياً في الموضوع نفسه، إذ تقول: "... أما النداء العربي فهو يكشف خيانة القوميين العرب الذين يتحدثون عن إيقاف الهجرة بوصفه انتصاراً كبيراً للحركة الوطنية، وذلك لحرف أنظار الجماهير عن النضال ضد الإمبريالية!!" (ص 275).

وهذا يعني، بكلام آخر: اتركوا أيها العرب تدفقات الهجرة تأخذ مجراها.. ولا تشغلوا بالكم بواقع أن استمرار هذه الهجرة سوف يقلب موازين القوى، لاحقاً، لمصلحة الصهيونية.. بل وجهوا اهتمامكم إلى الناحية الأخرى، بحيث لا تنحرف "أنظار الجماهير" عن النضال ضد الإمبريالية!!

– ويتحدث سعدي (نجاتي صدقي)، في رسالة بتاريخ 29 تشرين الثاني/نوفمبر 1930، عن الخلافات داخل الحزب وداخل القيادة نفسها، أساسها مسألة التحالف، أو التوفيق، بين النزعتين القوميتين: اليهودية والعربية.. والخلاف بين منظمة يافا – المتكوّنة من رفاق عرب – وبين قيادة "مركز الحزب اليهودي".. وشروط المنظمة للعودة إلى الحزب، ومنها مثلاً: "أ – التعريب الحقيقي...؛ ج – قيام المساعدة الأممية الحمراء بمساعدة العرب كما تساعد اليهود؛ د – التعاون مع القوميين الثوريين [العرب]...؛ ز – أن لا يعمل معهم رفاق يهود (معربون)، ولا رفاق عرب (مهودون)" (ص 292).

• هذه الخلافات والتفارقات بين الرفاق اليهود والعرب داخل الحزب، والاختلاف في النظرة إلى القضية الوطنية وإلى تدفقات الهجرة اليهودية، إلخ، برزت في مناقشات المؤتمر السابع للحزب الشيوعي الفلسطيني (كانون الأول/ديسمبر 1930). ففي كراس صادر عن المؤتمر إشارات إلى بعض هذه الخلافات، منها أنه برز تقدير مبالغ فيه للدور الطليعي للأقلية اليهودية.. "مما أدى ليس فقط لإضعاف تيار تعريب الحزب بل وإلى عرقلة ذلك" (ص 299). وبعد تبين بعض الأخطاء، ومنها عزلة الحزب عن تحركات الجماهير العربية، جاء في الكراس: "ظهر في الحزب... انحراف يميني انتهازي للتعصب الوطني اليهودي الذي اتخذ في بعض التشكيلات الحزبية (حيفا) صفة صهيونية بحتة... ولم تدرك [اللجنة المركزية] ولم تلاحظ نمو الانحراف الوطني اليهودي المتعصب، وسلطت نيرانها الأساسية على الوطنية العربية ورأت من واجبها التفكير في إيجاد عبارات للاستمرار في عرقلة التعريب" (ص 300). ويبدو أن قيادة الكومنترن تدخلت لتعديل ميزان القوى داخل قيادة الحزب، بما رأت أنه يبعد عن الحزب خطورة التعصب القومي والانقسام، فجاء في الكراس نفسه: "لوحظ التحسن الهام في أعمال الحزب في الشهرين الأخيرين فقط [أواخر سنة 1930] حينما قامت الدولية الشيوعية [الكومنترن] بتشكيل قيادة حزبية [للحزب الشيوعي الفلسطيني] بأكثرية من الرفاق العرب" (ص 300).

فهل تصلح تدخلات الكومنترن ما أفسدته وتفسده التعصب القومي، المتنامية؟..

فلنتابع القراءة، نتفحص عينات من هذه التعصبات في هذا الاتجاه التطرفي أو ذاك..

– يورد القيادي "فريد"، في رسالة بتاريخ 28 نيسان/أبريل 1932، عدداً من "المقولات" التي يبثها متطرفون – من الجانبين – داخل الحزب، منها ما يحمل حكماً سلبياً قاطعاً على العامل اليهودي كيهودي، في القول مثلاً: "إن اليهود جميعهم صهاينة ولا يجدي العمل معهم".. والقول كذلك: "العامل اليهودي فاشي ولا يمتلك الحق في العمل".. تقابلها "مقولات" أخرى تحمل حكماً سلبياً مماثلة على العامل العربي (راجع ص 332).. ويورد كاتب الرسالة أحداثاً عن خلافات وصراعات تشير إلى صعوبة – وربما استحالة – الجمع بين هذين العنصرين في حزب يساري فلسطيني واحد، في فلسطين هذه التي يدفعها التحالف الأنكلو – صهيوني إلى الانقسام.. والتقسيم.. والاحتراب!

– وفي هذا السياق نفسه، من السلب والإيجاب، ما ورد ضمن قرارات الاجتماع الموسع الرابع للحزب الشيوعي الفلسطيني (4 تموز/يوليو 1933) بصدد التفارق بين توجهات الحزب نحو المنظمات والنقابات العربية – بحسب توجهات الكومنترن – وبين التوجهات التي لا ترضي بعض القيادات اليهودية في الحزب. فقد ورد في القرارات الإشارة التالية في تقويم توجه إيجابي لقيادة الحزب: "لقد كانت اللجنة المركزية قد قومت، بشكل صائب، قيام نقابات عربية مستقلة، وتمثل أحد منجزاتها الكبرى، في الفترة المنصرمة، في إقامة صلة مع بعض المنظمات القومية اليسارية العربية" (ص 377).

على أن هذه الإشارة نفسها كانت تبرز حيناً بالشكل الإيجابي أعلاه، وحيناً آخر بشكل مختلف، نقيض.. أو بشكل يعبر عن رغبة قيادات في الحزب الشيوعي في ضرورة الاستيلاء على قيادة هذه المنظمات لتثويرها، أو تعمد إلى انتقاد بعض توجهات هذه المنظمات، انطلاقاً من الرغبة في أن تتطابق تماماً توجهات هذه المنظمات – "المستقلة" – مع توجهات الحزب الشيوعي نفسه!!

ومن ناحية أخرى تبرز في الحزب نزعات عند بعض الأعضاء اليهود متأثرة بالنزعات الصهيونية، بحسب هذه الإشارة التي وردت في القرارات نفسها: "... أما شعار مقاطعة البضائع الصهيونية والإمبريالية، فيظل شعاراً سليماً ولموساً، وذلك بالرغم من معارضة بعض الرفاق اليهود، وهي معارضة لا يمكن تفسيرها إلا بكونها نابعة من وجود تأثيرات صهيونية على الشيوعيين" (ص 377).

.. فيألى أي اتجاهات ستؤول هذه الخلافات، والصراعات؟

## (5) في الخلافات والصراعات بشأن قضية "التعريب"

### داخل الحزب الشيوعي الفلسطيني!

لعل من طبائع الأمور أن تبرز عناصر الصراعات، داخل الحزب الشيوعي الفلسطيني، بشكل أكثر حدة في المعركة التي احتدمت بشأن التوجه الذي عُرف باسم "التعريب"، حيث سيتراوح الصراع والنقاش بين السلب والإيجاب، مع بدايات للميل نحو الإيجاب، في اتجاه الجماهير العربية، التي كانت هي "الجسم الأساسي والأكثرية المطلقة لسكان فلسطين".

ومصطلح "التعريب" كان يعني - بالنسبة إلى الحزب الشيوعي الفلسطيني تحديداً - الخروج من الانعزال في القوقعة اليهودية، والتوجه النضالي نحو الجماهير العربية بالدفاع عن حقوقها ومستقبلها، والعمل على إحداث تغيير في بنية الحزب الأساسية بحيث يتزايد الرفاق العرب في قاعدة الحزب وفي قيادته، وبحيث تتوافق بنية الحزب هذه مع البنية الاجتماعية للبلد:

- من تقرير وصل إلى دوائر الكومنترن سنة 1924، من دون توقيع: "ارتبط [الحزب الشيوعي الفلسطيني] بشكل وثيق بالجماهير العمالية اليهودية، وهو يخطو حالياً خطواته الأولى على طريق التغلغل بين صفوف البروليتاريا العربية، وبخاصة بعد أن أُجبر أعضاءه على تعلم اللغة العربية" (ص 79). ثم: "... إن قيام الحزب بفضح السياسة الإنكليزية الرامية إلى خنق الحركة العربية يساعداً، شيئاً فشيئاً، على كسر جليد عدم الثقة الذي تبديه المنظمات القومية العربية تجاهنا" (ص 79).

- ومن تقرير ممثل الحزب الشيوعي الفلسطيني في الكومنترن (شباط/فبراير 1924): "... ويبذل الحزب كل جهوده من أجل أن يوضح الأمور على حقيقتها للعمال العرب المنسيين والمستضعفين، ومن أجل أن يقتلع من نفوسهم بذور الحقد والكراهية التي زرعتها العداوة القومية، وذلك كي يصبح هؤلاء العمال (العرب) مركزاً للحركة الشيوعية في البلاد" (ص 84).

- في رسالة من الكومنترن إلى الحزب الشيوعي الفلسطيني (23 آب/أغسطس 1924): "... ونحیی مبادرتكم الثورية الرامية إلى جذب العمال العرب إلى صفوف الحركة الشيوعية" (ص 103).

- من بروتوكول اجتماع مكتب التنظيم في الكومنترن (2 آذار/مارس 1925): "ناقش المكتب مسألة العمل في فلسطين، وأصدر قراراً خاصاً جاء فيه: ترى اللجنة أن الحزب، بعد أن اتبع تعاليم الكومنترن، راح ينشط بين العمال العرب، ويسعى إلى إقامة صلات مع المنظمات القومية العربية، والمنظمات الفلاحية، وقد تعاون الحزب تعاوناً وثيقاً مع الأحزاب الشيوعية الوليدة في البلدان العربية المجاورة" (ص 124).

- أكثر من هذا، فإن السكرتيريا السياسية للكومنترن، وخلال اجتماع لها (في 4 شباط/فبراير 1927) تلح على الحزب الشيوعي الفلسطيني في ضرورة التوجه العربي والمساعدة على إقامة اتحاد فيدرالي بين الأحزاب القومية، والعمل أيضاً على إقامة اتحاد بين الأحزاب الشيوعية العربية الناشئة.. ولا يمل الكومنترن من ترداد الإلحاح في "ضرورة تركيز اهتمام الحزب على تحقيق مهمة التغلغل بين صفوف الجماهير العربية... والانخراط النشط في النضال الوطني التحرري وإقامة علاقات وثيقة مع الحركة القومية التحررية العربية" (ص 169). ويقترح قرار الكومنترن وسائل عملية لهذا التغلغل وما سوف يتيحها للحزب.

ولا شك في أن هذا التوجيه من الكومنترن يرمي أيضاً إلى محاولة إبعاد الحزب عن "يهوديته البحتة"، وأن يتزايد الوجود العربي فيه، ويتحالف مع أحزاب قومية عربية تحريرية بما يجعله بالفعل جزءاً من المنطقة وفاعلاً في الحركة التحررية.

- ويسرد تقرير اللجنة المركزية، في 17 شباط/فبراير 1930، بعض ما تم تحقيقه في مسيرة التعريب: "توجهت السكرتيريا الحزبية بحزم نحو تحقيق مهمة التعريب، وينظر الاجتماع الموسع برضى إلى النتائج التي تحققت على

هذا الصعيد [ومنها]: أ - زيادة عدد الرفاق العرب في هيئات الحزب القيادية... ب - زيادة عدد الرفاق العرب في صفوف الحزب. ج - المبادرة إلى الدعوة إلى عقد مؤتمر العمال العرب" (ص 254).

• واضح، من خلال العديد من الرسائل المتبادلة بين الحزب الشيوعي الفلسطيني وقيادة الكومنترن (ابتداء من سنة 1924)، تشديد الكومنترن على ضرورة توسيع الحضور العربي في البنية الأساسية للحزب، وضرورة التواصل مع الأحزاب الشيوعية العربية الناشئة، إلى حد العمل، منذ تلك السنوات المبكرة، لتنظيم نوع من الاتحاد بين هذه الأحزاب (وخصوصاً في فلسطين ومصر وسورية ولبنان) انطلاقاً من حقيقة أن الانعزال في حزب فلسطيني، بأغلبية يهودية، يجعل من أي تطور مستقبلي لتنامي هذا الحزب وفعاليته، أمراً مستحيلًا.. وانطلاقاً كذلك من اقتناع دوائر الكومنترن بضرورة المساهمة في تطوير الحركة القومية العربية المعادية للإقطاع والاستعمار والصهيونية في فلسطين والبلاد العربية.. وإدراكاً من الحزب أن هذا التوجه لم يعد مجرد استجابة لتوجيهات الكومنترن وإلحاحه، بل هو استجابة للواقع الموضوعي نفسه، وضرورات تطوير الحركة النضالية المحلية وتجذير وجود الحزب وسط الجماهير العربية في فلسطين.

لكن يبدو أن مسيرة "التعريب" لم تكن تماماً بمثل هذا اللون الوردية.. بل هي أكثر تعقيداً، وتناقضاً، وتغييراً وتغاييراً بين الألوان..

- ففي السنة نفسها (1930)، حيث تحدث تقرير الحزب عن إنجازاته المهمة في "التعريب"، وصل إلى مركز الكومنترن تقرير مقدم من ليبرمن (وقد يكون ليبرمن هذا - بحسب ما ورد في الكتاب - هو الرفيق العربي طاهر المغربي، أحد مندوبي الحزب إلى مؤتمر العمال العرب في حيفا).. يسرد التقرير وقائع ويصل إلى استنتاجات كأنها من الضفة الأخرى، النقيضة، بحيث يميل ذلك اللون الوردية، الآتي من وثائق الحزب، إلى الرمادي الغامق القريب من السواد، بحسب أجواء هذا التقرير:

"... لقد تميز نشاط الحزب... بالسلبية الشديدة تجاه الحركة النقابية العربية، حيث بقي الحزب عاجزاً عن تنظيم العمال العرب، ويعاني من جهلته الكامل بطروفيهم الخاصة. ولم يكن هناك في هيئاته القيادية أي رفيق عربي قادر على معرفة متطلبات العمال العرب ومؤهل لقيادتهم" (ص 265). ويقول التقرير إن الصلة بين أعضاء الحزب العرب والقيادة كانت "تتم من خلال رفيق يهودي... يتصرف كديكتاتور صغير...". فلم يثق به الرفاق العرب، وكان يعرقل عقد الاجتماعات، و"يعارض بشدة أي اقتراح يدعو إلى ضم رفاق عرب إلى الهيئات القيادية"... ويقول هذا التقرير الانتقادي: إن "أعضاء الحزب العرب يجهلون بالكامل خط الحزب ومواقفه تجاه الطبقات والفئات المختلفة، كالبورجوازية الصغيرة والطلبة والقوميين اليساريين وحتى الصهيونيين. ولم تُطرح هذه الأمور أمامنا ولا مرة واحدة" (ص 265).

• ... المدهش أن هذا التقرير الإشكالي يشكك في أكثر ما جاء في رسائل قيادة الحزب إلى مركز الكومنترن، ولا سيما بالنسبة إلى مسألة "التعريب" والاهتمام الضروري بالرفاق العرب وعدم عرقلة وصولهم إلى المراكز القيادية في الحزب.. وكأن هذا التقرير يدلل أو يؤكد صعوبة - بل لعله يوحي باستحالة - الاندماج بين يهود وعرب في حزب واحد، فلسطيني، حتى لو كان شيوعياً.. ألسنا نلاحظ هنا مبالغات حادة، سواء في الأحكام القاطعة التي يطلقها هذا التقرير (الذي كتبه رفيق عربي) تقابلها أو تنقضها مبالغات أخرى في تلك الرسائل القيادية التي قد تتقصّد إرسال القول بما يرضي توجهات الكومنترن وتوجيهاته بأكثر مما تعبر عن إنجاز فعلي، في الواقع الحزبي؟! - لكن، بعد رسالة الرفيق العربي مباشرة، نقرأ رسالة من القيادي نداب (ناحوم ليشنسكي) بتاريخ 9 نيسان/أبريل 1930، يتحدث فيها بتفاؤل عن "اتحاد العمال العرب"، وعن نجاح الحزب في إيصال رفيق إلى قيادة اتحاد حيفا، وكذلك نجاحات في سياق العمل على تزايد الوجود العربي في بنية الحزب، وفي "تأسيس خلايا عربية جديدة" (ص 266).

- وتأتي قرارات اجتماع موسع للحزب (في 6 آب/أغسطس 1930) لتؤكد هذا التفاؤل وتعطيه مبرراته، إذ جاء فيها: "يحيي الاجتماع جهود اللجنة المركزية الرامية إلى تقديم الرفاق العرب إلى المواقع القيادية، واستيعابها الصحيح، وليس الميكانيكي، لشعار الكومنترن الخاص بالتعريب" (ص 284). ثم: "إن مهمة الحزب الأساسية، حالياً، هي إنجاز التعريب، ودفع أفضل الرفاق العرب البلاشفة إلى المواقع القيادية وكسب تأييد أوسع فئات البروليتاريا العربية" (ص 285).

.. فيألى أي حد يمكن للحزب أن "ينجز التعريب" في خضم الصراعات بين القياديين أنفسهم، والتي من أسبابها المواقف المتخالفة، والخفية والمعلنة، من مسألة التعريب، ومن مسألة "تقديم" رفاق عرب إلى مراكز قيادية؟

يبدو أن دوائر الكومنترن لم تكن ميالة إلى التسليم بهذه الدرجة من التفاؤل، وتذهب في مسألة التعريب إلى حد مطالبة الحزب بما هو أبعد. ففي رسالة من قيادة الكومنترن "إلى جميع أعضاء الحزب الشيوعي الفلسطيني" (في 17 أيلول/سبتمبر 1933) إشارة واضحة إلى أن اللجنة المركزية للحزب "لم تستطع أن تطبق على أرض الواقع التوجيه اللينيني الداعي إلى أن يكون الرفاق اليهود في الحزب (مساعدين، وليس معلمين أو مرشدين) للرفاق العرب" (راجع ص 388)، إذ توجد تفصيلات أخرى عن أن الرفاق العرب لم يروا في الحزب منظمتهم الخاصة!.. وتلح الرسالة في ضرورة الحزم في اتجاه التعريب إلى درجة الإيعاز بإبعاد الأعضاء اليهود، الذين يماطلون في تطبيق هذا التوجه، عن قيادة الحزب.. تشكيل قيادة جديدة تضم أغلبية عربية (ص 390).

وكان الرفيق القيادي س (نجاتي صدقي) قد رفع إلى الكومنترن (في 13 أيلول/سبتمبر 1933) بياناً طويلاً عن الحالة داخل الحزب يتضمن وقائع وتفصيلات كثيرة تكشف التفارق إلى حد التناقض، بين القياديين، في المواقف من الحركة الوطنية العربية، ومن شعار التعريب، ومن أساليب التعامل مع الرفاق العرب، ومن انحصار مراكز الحزب في الأحياء اليهودية!! (يراجع هذا البيان التفصيلي المهم في الصفحات 391 – 398).

وقد تحمل هذه الوقائع إشارات إلى صعوبة مأزقية عميقة، أمام تطور حزب شيوعي موحد، بين عرب ويهود في فلسطين بالذات، حيث الصراع الأساسي في البلد ليس مع الانتداب الإنكليزي فقط، بل أيضاً بين الحركة الوطنية العربية والحركة الصهيونية المدعومة من الإنكليز، والتي تخطط لطرد العرب أساساً من البلد، والسيطرة على فلسطين، وإقامة الوطن القومي لليهود.

وتلفت النظر، في هذا السياق، رسالة من دون توقيع (مرسلة إلى الكومنترن في 26 تموز/يوليو 1935) تتحدث عن أوضاع الحزب، وتقول إنه كان بعيداً عن مختلف المعارك الشعبية ضد الإمبريالية الإنكليزية والحركة الصهيونية... ثم تتابع قائلة: "لقد كان الكومنترن قد أكد أن الحزب قد حصر نفسه في الأطر اليهودية الضيقة وعجز عن الارتباط بالجماهير العربية، ولم يتمكن، لهذا السبب، من أن يتحول إلى حزب جماهيري بروليتاري. وقد حدد الكومنترن النهج الذي يتوجب على الحزب انتهاجه كي يتحول إلى حزب جماهيري بروليتاري، وهو نهج التعريب، لكن أعضاء اللجنة المركزية المكونة في الأساس من اليهود، الذين خرجوا من صفوف الأحزاب الصهيونية وظلوا متأثرين بالفكر الصهيوني، لم يدركوا جوهر توجيهات الكومنترن وضرورتها الحيوية، ولم يؤمنوا بدور الجماهير العربية العريضة وقدرتها على الحسم الثوري.. ثم تقول الرسالة، بوضوح وحسم: "إن القيادة الانتهازية لم تدرك أن اليهود في فلسطين يشكلون أقلية... وبما أن الجماهير العربية في فلسطين تشكل القسم الأعظم من السكان، والقوة الحاسمة في النضال الوطني التحرري، يصبح من المهم، بالنسبة إلى الحزب، العمل على كسب هذه الجماهير إلى جانبه" (ص 426 – 427).

.. فمن تصدق، أيها الكومنترن؟!!

## (6) اتجاه "عروبي" مدهش:

### العمل على إقامة "جمهورية اتحادية عربية ديمقراطية مستقلة"

لكن، في هذا السياق المعقد من التفارقات والتناقضات، والتردد المأزقي بين توجيهات الكومنترن بصدد "التعريب"، وصولاً إلى تغيير التركيب الداخلي للحزب، وبين سيطرة الأكثرية اليهودية في القيادة والقاعدة.. كان يصدر عن الحزب بعض اتجاهات وشعارات مدهشة بصدد العمل العربي التوحيدي المشترك، يرسم أهدافاً مستقبلية ليس بالنسبة إلى ذلك الزمان المبكر فقط، بل أيضاً وخصوصاً بالنسبة إلى زماننا العربي التفتيتي هذا.

فمنذ أواسط العشرينيات من القرن الماضي، صار يبرز بوضوح، بين حين وآخر، اهتمام الحزب الشيوعي الفلسطيني بالحركة الوطنية العربية، وبالتنظيمات والأحزاب في الدول العربية (وخصوصاً: مصر، وسورية، ولبنان، إضافة إلى فلسطين)، والدعوة إلى ضرورة اهتمام هذه الأحزاب بالحركة العمالية، والعمل على أن يوطد الحزب الشيوعي الفلسطيني صلته بهذه الأحزاب، والطلب من الكومنترن أن يساعد في عقد هذه الصلات ورعايتها.

وقد برزت إشارات إلى هذا التوجه، حتى منذ سنة 1923.. ففي مذكرة للحزب عن مؤتمره الأول (1 – 3 آذار/مارس 1923) ورد القول بضرورة الاتصال بالحركات الشيوعية في البلاد العربية، وضرورة القيام بعمل مشترك واسع من أجل إقامة "اتحاد للأحزاب الشيوعية في الشرق" (ص 66).

ويخبرنا تقرير من الحزب، صادر سنة 1925، عن إقامة صلات عملية في هذا الاتجاه بين الأحزاب الشيوعية في فلسطين ومصر وسورية ولبنان، وأن هذه الأحزاب "توصلت... إلى اتفاق يقضي بإقامة فيدرالية شيوعية فيما

بينها، توحد النضال الشيوعي في الشرق الأوسط، وتفتح أمامه آفاقاً واسعة" (ص 129).. نشير هنا إلى أنه توجد دلائل على عقد صلات تعاون بين هذه الأحزاب وليس إقامة فيدرالية، وكان اقتراح إقامة فيدرالية مثار مناقشات عديدة بين قيادات الكومنترن.

– .. ويأتي المؤتمر السادس للحزب (نيسان/أبريل – أيار/مايو 1926) ليسجل قرارات خاصة بالمسألة القومية العربية، ويعلن رؤيته وأهدافه في هذا المجال، وأن مؤتمر الحزب قد أدرج هذه المسألة في جدول نشاطه العملي اللاحق.. وقد نص المؤتمر على "أن الحركة القومية العربية لم تنجح، إلى الآن [أي في سنة 1926]، في تبني أيديولوجيا ثورية، بالرغم من توفر إمكانات بناء منظمات قومية ثورية قادرة على قيادة نضال الجماهير. غير أن المؤتمر يلاحظ وجود تمايز في تطور الحركة القومية العربية" (ص 151).

فكيف رأى المؤتمر إلى العناصر التي يمكنها أن تؤهل هذه الحركة القومية لأن تكون مسارها الثوري، والتطور المستقبلي اللاحق لهذا المسار؟

يطرح المؤتمر أمام هذه الحركة القومية تصوراته للمهمات التي لا بد من أن تأخذها على عاتقها، ويذهب في تصوره إلى الأبعد:

"ينبغي على الحركة القومية العربية، في الظرف الراهن [أي في ذلك الزمان المبكر: النصف الثاني من عشرينيات القرن الماضي]، أن تتطبع بطابع ديمقراطي راديكالي، حيث يتوجب عليها أن تعمل على تلبية مطالب الجماهير الكادحة من الفلاحين وطبقة العمال الناشئة والقادة المثقفين الراديكاليين؛ فهذه الحركة إما أن تكون ديمقراطية أو لا تكون أبداً. إن الحركة القومية تظل الحليف الأنفع – إن لم يكن الوحيد – للطبقة العاملة في نضالها ضد الإمبريالية ومن أجل التحرر" (ص 151).

• .. فإذا تأملنا في هذا النص من البيان نرى أنه يتضمن: 1 – رؤية نقدية (من موقع الحليف) إلى الحركة القومية العربية التي عليها أن تتبنى أيديولوجيا ثورية، لتستطيع أن تنجز، بالتحالف مع الحركة الشيوعية، مهمات التحرر الوطني والتقدم الاجتماعي: 2 – تحديد التمايز داخل هذه الحركة بين معادين للإمبريالية، ومياليين إلى المساومة معها: 3 – دعوة مبكرة، ورائية، إلى ضرورة اعتماد التوجه الديمقراطي داخل الحركة القومية العربية وفي تعاملها مع الجماهير العربية.. ثم: التشديد على هذا القول التحذيري والاستشراقي: "فهذه الحركة إما أن تكون ديمقراطية أو لا تكون أبداً.. ولا بد من القول، هنا، إن هذه الرؤية التي عبر عنها المؤتمر، وعبرت عنها الحركة الشيوعية العربية عامة (منذ تلك الأعوام المبكرة، وظلت تشدد عليها طوال تاريخ من الصدمات والتعرجات والاعتقالات والضحايا والدماء) – هذه الرؤية تكشف عن تلك الأصول اللاديمقراطية للكوارث التي حلت بالحركة القومية العربية نفسها، وسائر حركات التحرر، وبالبلاد العربية عامة، من حيث أن تلازم الممارسات اللاديمقراطية هذه، وتالياً سيادة الاستبداد والقمع، مع وصول أجنحة من هذه الحركة إلى الحكم، والتحكم.. وصلت إلى تدمير نفسها، وتدمير البلاد، وتدمير البنى الأساسية لسائر حركات التحرر والتقدم على امتداد الوطن العربي الشاسع!!

• .. وتواصل دوائر الكومنترن، والحركة الشيوعية العربية، تقديم اقتراحاتها التوحيدية، بحيث تشمل البلدان والدول العربية وليس فقط الحركات السياسية، فتذهب بالتوجهات والشعارات إلى الأبعد والأجراً على صعيد الطروحات العروبية التوحيدية.. من ذلك أن السكرتيريا السياسية للكومنترن، وخلال اجتماع لها في 4 شباط/فبراير 1927، قدمت إلى الحزب الشيوعي الفلسطيني اقتراحات للقيام بنشاطات فعالة على الصعيد العربي العام. منها، مثلاً: ضرورة اتحاد حركات التحرر العربية بوجه الإمبريالية والإقطاع؛ فسح المجال لتحالف الحركة الشيوعية العربية مع الحركة القومية؛ وهذا التحالف هو الطريق الشعبي للوصول إلى شكل من أشكال اتحاد ديمقراطي لعدد من البلاد العربية على قاعدة اتحاد القوى الشعبية؛ ويقترح الكومنترن على الحزب الشيوعي الفلسطيني أن يطرح على الأحزاب القومية العربية النضال معاً لتحقيق أهداف قومية ذات طبيعة ديمقراطية وتحررية، على الصعيد العربي العام، منها: إقامة تنظيم قومي ثوري موحد على قاعدة اتحاد الأحزاب القومية والشيوعية في سورية ولبنان والعراق وفلسطين. وتالياً: "إعداد برنامج للقيام بنشاطات مشتركة ونسج علاقات تعاون متبادلة في النضال العام في البلدان العربية كافة، كالنضال من أجل إلغاء الانتداب الفرنسي والانتداب الإنكليزي، والنضال من أجل انسحاب قوات الاحتلال، وإقامة جمهورية اتحادية عربية ديمقراطية مستقلة" (ص 170).

على أن دوائر الكومنترن تطور رؤيتها لطابع هذه "الجمهورية العربية الاتحادية" من كونها جمهورية ديمقراطية إلى ما هو أبعد، وأكثر اختلافاً وتقدماً، بحسب رؤيتها، وأكثر إثارة للدهشة.. ففي رسالة طويلة من اللجنة التنفيذية للكومنترن إلى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفلسطيني (25 آذار/مارس 1929) ورد هذا الاقتراح السابق جداً

لأوانه: "إن شعار إقامة فيدرالية العمال والفلاحين العرب المستقلين - الجمهورية السوفياتية، يجب أن يكون الشعار الأساسي للشيوعيين في المشرق العربي. وينبغي ربط نضال الكادحين في فلسطين بالنضال العام الذي يخوضه الكادحون في المشرق العربي بأسره ضد الإمبريالية والإقطاعيين والبورجوازية المحلية. ولا بد من التأكيد على شعار ضم فلسطين إلى جمهورية العمال والفلاحين العرب السوفياتية هذه، التي تضمن حقوق الأغلبية العربية وحقوق الأقلية اليهودية على السواء" (ص 227 - 228).

• .. تأتي هذه الاقتراحات البرنامجية في حين لم تكن قد طُرحت بعد، على الصعيد السياسي الدولي العلني العام، مسألة إقامة دولة إسرائيل.. ولم يكن واضحاً في الوعي العربي عامة (على الرغم من إعلان "وعد بلفور" الإنكليزي بإقامة وطن قومي لليهود) ما سوف تحمله عواصف الأعوام اللاحقة، من تحويل عنفي ودموي لهذه "الأغلبية" العربية بحيث تصير "أقلية" بعد الترحيل والتهجير الدموي الذي أنجزته العصابات الصهيونية برعاية إنكليزية - أميركية سنة 1948.

## (7) النضال لإلغاء "وعد بلفور"

### شعار سياسي كفاحي جريء

لكن، هل أن الحزب الشيوعي الفلسطيني، وهو في غمرة هذا الحلم الثوري المشعشع (دولة سوفياتية عربية موحدة تنضم إليها فلسطين!)، لم يحسب حساب مشروع آخر، نقيض، يتخذ لنفسه يافطات عدة، منها مثلاً: "وعد بلفور"؟.. وهل كان "وعد بلفور" هذا واحداً من هموم الحزب الشيوعي الفلسطيني، في تلك الفترة؟ في الواقع، إن شعار النضال ضد "وعد بلفور" كان واحداً من الشعارات الأساسية التي كان الحزب يرفعها، وبالأهمية نفسها التي يعطيها لشعارات مثل: النضال ضد الانتداب البريطاني، ومن أجل استقلال فلسطين.. وهذا توجه كفاحي فعلي وجريء، من حزب كانت أكثريته المطلقة من اليهود، مع إمكان أن يؤثر رفع هذا الشعار سلباً في مناصري الحزب من اليهود، وحتى في أعضائه اليهود!..

- أول مرة يرد هذا الشعار - في هذا الأرشيف السري - ضمن تقرير من اللجنة المركزية (في تموز/ يوليو 1924) بشأن اقتراح مقدم من الحزب إلى اللجنة التنفيذية العربية لإعداد برنامج كفاحي مشترك يتضمن: "النضال ضد الانتداب البريطاني ومن أجل استقلال فلسطين، النضال ضد وعد بلفور الصهيوني، النضال من أجل قيام مجلس تشريعي ديمقراطي" (ص 129).

- مندوب في المؤتمر الوطني العربي (تموز/ يوليو 1928)، كان على صلة بالحزب، ألقى خطاباً تبنى فيه - كما تقول رسالة من الحزب - "معظم المطالب التي طرحها الحزب.... [ومنها]: رفض الانتداب، جلاء القوات البريطانية، إلغاء وعد بلفور، ضمان وحدة البلدان العربية" (ص 205).

- رسالة من اللجنة المركزية إلى أعضاء الحزب الدارسين في "جامعة كادحي الشرق" في موسكو (10 تموز/ يوليو 1929) تتضمن هذه الفقرة اللافتة بشأن وعد بلفور: "... وفي ذكرى وعد بلفور في الثاني من تشرين الثاني [نوفمبر]... أصدر الحزب - وقد انفرد بذلك - بياناً، وقام رفاقنا بتنظيم مظاهرة استنكار [لهذا الوعد] في يافاً" (ص 234).

- وفي بيان أصدره الحزب في 27 آذار/ مارس 1933، دعا المنظمات الديمقراطية إلى تنظيم "إضراب احتجاجي عام" تحت شعارات لافتة للنظر، صاغتها قيادة حزب يضم رفاقاً من يهود وعرب، في قاعدة الحزب وقيادته، وهي شعارات جريئة ولها طابع جذري بالنسبة إلى تلك المرحلة، ولظروفها الخطرة.. من هذه الشعارات، مثلاً: "1 - انسحاب القوات البريطانية وإنهاء الانتداب وإلغاء وعد بلفور. 2 - إعادة الأراضي التي سلبها الصهاينة وتوزيعها على الفلاحين الفقراء. 3 - توزيع كامل أراضي الحكومة، وأراضي الحركة الصهيونية، وأراضي الشركات الأجنبية... على الفلاحين الفقراء [وهم من السكان العرب عامة]. 4 - الوقف الفوري للهجرة الصهيونية..." (ص 359).

• .. صحيح أن هذه الشعارات كانت جذرية جداً في حينه، وأكبر كثيراً من قدرة رافعيها على تحقيق ولو الشيء القليل منها.. (ولو افترضنا، في لحظة تخيل باهر، أن هذه الشعارات، أو أن الأساسي منها قد تحقق في ذلك الزمان.. لكان الوضع كله قد تبدل كلياً، ودخل في أفق التغيير الشمولي، وصولاً إلى يومنا هذا!.. ولكانت الدولة، في فلسطين

الموحدة، هي تماماً غير هذه الدولة العنصرية التي تمارس نازيتها المستدامة بأبشع من نازية الزمان الهتلري العنصري الدامي..).

لكن المهم أن تلك الشعارات التي أطلقتها قيادة الحزب الشيوعي الفلسطيني في ذلك الزمان، وبالأخص شعار "إلغاء وعد بلفور الصهيوني"، تحمل عدة دلالات، منها أن الحزب كان، في تلك الفترة، ضد - أو هو غير موافق على - إقامة دولة قومية لليهود، سوف تحمل بالضرورة مضموناً عنصرياً تعصبياً؛ ومنها أن تلك الشعارات تشير إلى رؤية متوازنة في العقل السياسي لقيادة الحزب، في تلك الفترة من ثلاثينيات القرن الماضي، تتجلى في ذلك الانحياز الواضح إلى العدالة والتصدي للظلم، والإقرار بحق الأكثرية العربية في الأرض، وبأن تكون هي الأكثرية في بناء الدولة الموحدة، وذلك توافقاً مع الواقع الموضوعي الديموغرافي والاجتماعي، وتوافقاً مع خط الكومنترن في "التعريب" ودعم تطور حركة تحرر عربية استقلالية ديمقراطية، وصولاً إلى تحقيق ذلك الشعار المستقبلي الشبيه بالحلم: إقامة جمهورية اتحادية عربية ديمقراطية مستقلة.

على أن جذرية هذه الشعارات، والصعوبات الهائلة التي كانت تقف بوجه تحقيقها، والتي تتطلب تألف وتحالف وتحشيد قوى شعبية واسعة - كانت تتعارض كلياً مع إطلاق أوصاف مثل: الانتهازية والجبن والتخاذل والخيانة، لتصفها قيادات في الحزب الشيوعي على بعض ممارسات لقيادات في "حزب الاستقلال" مثلاً، وقيادات "اللجنة التنفيذية العربية"، وهي القيادات الأساسية للجماهير العربية، في تلك الفترة.. فإذا تعامل الحزب مع هذه القوى والأحزاب بالمقتضيات السلبية لتلك الأوصاف، فمن يتبقى من القيادات الحزبية العربية في فلسطين لتتحالف معها قيادة الحزب الشيوعي الفلسطيني؟!

وفي الواقع، فإن الموقف من "حزب الاستقلال" بالذات استهلك كثيراً من الخلافات والجدالات الحادة والتقويمات المتناقضة بين قيادات الحزب الشيوعي نفسه، وبينها وبين قيادات في دوائر الكومنترن.. وهذه معركة جديرة بأن تُعرف.

## (8) جدالات بشأن "حزب الاستقلال":

### وطني.. أو انتهازي.. أو "خائن"؟!

منذ أوائل العشرينيات، بدا اهتمام الحزب الشيوعي الفلسطيني واضحاً بالحركة الوطنية العربية، وسائر الأحزاب العربية، ودأب الحزب على التنويه باهتمام بعض هذه الأحزاب بالحركة العمالية (وخصوصاً "حزب الاستقلال" و"اللجنة التنفيذية العربية"..) - وكانت قيادات من الحزب الشيوعي تلح في ضرورة عقد صلات بهذه الحركات والأحزاب والتنظيمات. حتى إن قيادات الحزب كانت تطلب من قيادة الكومنترن المساعدة في عقد هذه الصلات ورعايتها وتقديم الدعم لها.. ولا شك في أن هذا يشير إلى اقتناع الحزب بأن الحركة الشيوعية - في فلسطين خاصة - لن يكون لها أي تأثير شعبي وجماهيري جدي إذا بقيت معزولة ضمن عدد من اليهود والأجانب؛ فالجمهور العربي هو الأساس المتين والمهاد الأوسع لأي حركة ثورية وشيوعية في الشرق (راجع ص 98).

- الإشارة الأولى، في هذه الوثائق، إلى "حزب الاستقلال" ترد في تقرير قدمه "أبو زيام"، ممثل الحزب الشيوعي الفلسطيني في اللجنة التنفيذية للكومنترن (كانون الأول/ديسمبر 1926) حيث يخصص فقرة طويلة، وإيجابية جداً، عن "حزب الاستقلال"، وهو حزب له فروع وامتدادات في فلسطين وسورية ولبنان.. يضيف "أبو زيام" على "حزب الاستقلال" صفات ثورية وجذرية ربما تتسم بالمبالغة. ولعل مبالغت "أبو زيام" هنا تعود إلى رغبته في إظهار التجاوب مع "التوجه العربي" لدى دوائر الكومنترن، ومحاولة لإرضاء اندفاعه هذا التوجه.. ومما جاء في تلك الفقرة من تقرير "أبو زيام"، أن حزب الاستقلال هذا يسعى ل: "إقامة نظام ديمقراطي على أساس الاقتراع العام؛ أن تكون الحكومة مسؤولة أمام البرلمان؛ إقرار تشريعات عمالية؛ القيام بإصلاح زراعي؛ تقديم قروض ومساعدات حكومية إلى الفلاحين؛ إقامة فيدرالية بين البلدان العربية؛ الاعتراف بالاتحاد السوفياتي... وقد أقر هذا الحزب بضرورة التعاون مع البروليتاريا، بوجه عام، ومع الأحزاب الشيوعية، بوجه خاص. وساهم دوره القيادي في الثورة السورية... في تعزيز سمعته، وجعله يبرز بوصفه الحزب الأكثر شعبية ليس في سورية وحدها وإنما في كل البلدان العربية" (ص 162).

(في مرجع آخر، نقرأ بنوداً أخرى في برنامجه، منها: "الكفاح ضد الاستعمار ومحاربة الهجرة اليهودية وبيع الأراضي [للإهود] وإقامة حكم عربي برلماني". أنظر: "الموسوعة الفلسطينية"، القسم الثاني، المجلد الثاني، ص 1032).

لا شك في أن تلك البنود والأهداف - وفق إيراد "أبو زيام" لها - هي بنود حزب ثوري فعلي ومستقبلي، لا بالنسبة إلى ذلك الزمان فحسب، بل أيضاً بالنسبة إلى زماننا.. ولعل هذا التقويم لحزب الاستقلال ودوره يعود، بالإضافة إلى الرغبة في إرضاء "التوجه العربي" في قيادة الكومنترن في تلك الفترة، إلى ذلك المزاج الثوري العربي العام النابع من أحداث الثورة السورية ضد الانتداب الفرنسي (مع بدايات سنة 1925)، ومن بدايات ظهور حركات اليسار العربية، ومنها تأسيس الحزب الشيوعي السوري اللبناني، إضافة إلى التحركات اليسارية والشيوعية في مصر وفي فلسطين.

• على أن هذا التقويم الإيجابي العالي لـ "حزب الاستقلال" لن يستمر على حاله، وسيتقافز من النقيض إلى النقيض: - ففي طروحات عامة للجنة المركزية للحزب الشيوعي الفلسطيني (12 آذار/مارس 1933) عدة طروحات خاصة بالعلاقات بـ "حزب الاستقلال" تفصح عن تحول ما في الموقف من هذا الحزب الذي كان أقرب إلى أن يكون حزباً حليفاً.. ففي هذه الطروحات ميل إلى انتقاد شعارات هذا الحزب من حيث أنها لا تتطابق تماماً مع شعارات الحزب الشيوعي نفسه!!.. ودعوة إلى "فصل جماهير حزب الاستقلال عن زعمائه"!!.. وذهاب الانتقاد إلى ما يشبه وصف سلوك بعض قياداته بـ "الخيانة"!

- وكذلك في تقرير للحزب الشيوعي (27 آذار/مارس 1933) وردت هذه الجملة الغريبة بشأن "حزب الاستقلال".." كأنما المقصود أن يتحول إلى حزب آخر. يقول التقرير: "أجرى الحزب [الشيوعي] سلسلة اتصالات مع العناصر القومية اليسارية بهدف إبعادها عن تأثير الإصلاحيين داخل حزب الاستقلال، وصولاً إلى تشكيل حزب قومي ثوري".." أي: مناسب، لنا!! (ص 359)

- طروحات أخرى في شأن "حزب الاستقلال" صاغها القيادي العربي في الحزب الشيوعي، الرفيق كامل (أي: نجاتي صدقي) مؤرخة 27 آذار/مارس 1933، وتتضمن توصيفاً لهذا الحزب، ينطلق أساساً من تقويم إيجابي له، مع بعض الملاحظات والانتقادات. يبدأ الرفيق كامل طروحاته بهذا الرأي الحاسم: "من غير الصائب وصف حزب الاستقلال بأنه حزب موال للإمبريالية... فهذا الحزب يقف اليوم على رأس الحركة الوطنية، ويتمتع بنفوذ كبير" (ص 362). ثم يورد نجاتي صدقي بعض أهداف "حزب الاستقلال" التي يرى أنها تتمثل في: "تحقيق التحرر القومي وتوحيد الدول العربية، وهو ينتقد الحركة القومية الإصلاحية في البلدان العربية، ويقف مع الإصلاح الزراعي، ويؤيد كل التحركات الهادفة إلى تحسين أوضاع الفلاحين" (ص 363). ويلمّح نجاتي صدقي إلى انتهازية بعض قيادات هذا الحزب، لكنه يعود فيؤكد بوضوح "أن حزب الاستقلال هو الحزب اليساري الوحيد المعارض داخل معسكر الحركة الوطنية، والقادر، أكثر من غيره، على تثوير الأوضاع والدخول في تحالف مع الحزب الشيوعي الفلسطيني" (ص 363).. لكن نجاتي صدقي نفسه يقفز إلى صوغ هدف غريب وغير واقعي ومستحيل، عندما يقول: "ينبغي علينا الاستيلاء على قيادة حزب الاستقلال!!" (ص 364).. وغرابة هذا "الهدف" أنه، أيضاً، لا يتوافق مع كل التوصيفات التي أضفاها نجاتي صدقي على هذا الحزب، بالنص، ضمن طروحاته نفسها!!

- .. ويأتي رد تصوبيي من القسم الشرقي في الكومنترن (9 أيار/مايو 1933) يعيد تلك الصيغة التي وضعها نجاتي صدقي إلى "الصواب"!!.. فيقول: "إذا كان من الخطأ القول إن حزب الاستقلال هو حزب موال للإمبريالية، فإن من الخطأ كذلك تصويره على أنه حزب قومي ثوري معاد للإمبريالية" (ص 367). وتورد الرسالة عدة أمثلة لمواقف "حزب الاستقلال" وأقواله للتأكيد أنه حزب "إصلاحي" وليس "ثورياً".." وكأن الرسالة هذه تريد من برنامج "حزب الاستقلال" أن يتطابق تماماً مع "البرنامج الثوري" للحزب الشيوعي نفسه!!.. لكن الرسالة توجه الاهتمام إلى ما تعتبره المسألة الأساسية، وهي: تشكيل الجبهة المتحدة مع "حزب الاستقلال" والمجموعات القومية الثورية الأخرى، بما يرسخ حضور الحزب الشيوعي في قلب الجماهير الشعبية.. وتقتراح الرسالة على الشيوعيين أن تتقدم الجبهة المتحدة باقتراح عقد مؤتمر عمالي، وباقتراح مطالب معادية للإمبريالية والصهيونية "مثل الوقف الفوري للهجرة اليهودية، والنضال الثوري ضد طرد الفلاحين العرب من أراضيهم وطرد العمال العرب من منشآتهم، وإلغاء الانتداب البريطاني و[إلغاء] وعد بلفور" (ص 370). ومثل هذه الجبهة يتيح التعاون على مستوى القاعدة الجماهيرية ومستوى القيادات، على السواء.

- لكن موقف الحزب الشيوعي من "حزب الاستقلال" يعود فيقفز من موقع الوسط إلى الموقع الهجومي الانتقادي المتناقض وغير المبرر.. ففي قرارات الاجتماع الموسع للحزب (كانون الأول/ديسمبر 1934) وردت هذه الجملة المتناقضة، والعجيبة: "إن انتشار روح السخط بين الجماهير العربية دعا الانتهازيين الوطنيين، كاللجنة التنفيذية

العربية ومؤتمر الشباب وحزب الاستقلال، لأن ينظموا مظاهرات أكتوبر [تشرين الأول] ضد الهجرة الصهيونية، وبيوع الأراضي" (ص 402).

من غير المفهوم - في هذا النص - كيف تندرج الدعوة إلى هذه التظاهرات، وهذه الشعارات التي صيغت لها، تحت خانة "الانتهازية"! من دون أي توضيح، في هذه الوثيقة، لعناصر الانتهازية التي قد تكون موجودة، لكن خارج النص؛ وخصوصاً أن هذا النص نفسه يروي كيف أن جماهير التظاهرات أطلقت الهتافات العارمة "ضد السلطة الإنكليزية الاستعمارية الصهيونية"، الأمر الذي يدل، كما جاء في النص نفسه، "على انتشار روح الثورة بين الجماهير العربية ونموها، ويدل على قرب أزمة ثورية في البلاد" (ص 402).. وواضح من الوثيقة هذه أن قيادة الحزب الشيوعي إذ تعترف بأنها "لم تتوفق في استلام زمام قيادة هذه المعارك الهائلة" (ص 402).. وجدت من الأسهل عليها أن تشير - بلا توضيح - إلى انتهازية الداعين إلى التظاهر، مهما يكن طابع النشاط الذي يقومون به أو يدعون إليه، ومن دون إلقاء الضوء، أساساً وبالدرجة الأولى، على الطابع التحرري الحقيقي للتظاهرات نفسها، حتى لو كان الداعون إليها من غلاة الانتهازيين.. وكأن كاتب الوثيقة يضمّر القول: (بأن انتهازية مطلقاً هذه التظاهرات تتجلى في واقع أننا - نحن - لسنا في مكانهم القيادي)..! وهذا نوع من التطرف في الحكم ينطوي، أيضاً، على موقف انتهازي، وتعبير عن عجز قيادي، معاً.

غير أن من شأن الهبات الكفاحية الجماهيرية أن تصحح رؤى الحزب الشيوعي هذه، ومواقفه العملية الكفاحية، وتؤكد قدراته وحضوره الفاعل بين الجماهير.

هكذا سيكون تأثير ثورة 1936 الفلسطينية الشعبية، في الحزب ودوره، كما سوف نرى..

## (9) عن مشاركة الحزب في ثورة 1936:

### الحماسة الثورية.. والخلافات الحتمية!

.. ومع لهيب الثورة، تأتي الصفحات الأخيرة من هذا الكتاب الغني، المثير للفكر والجدل، وأحياناً للدهشة والعجب.. فكأن التقرير الأخير، الوارد في الصفحات الأخيرة للكتاب، أشبه بالخاتمة المشغولة للعمل الفني الروائي الشعري أو الموسيقي. ففي هذا التقرير صفاء حماسي في سرد الأحداث والرؤية إليها والموقف منها. حتى الأسلوب الذي كتب به التقرير أقرب إلى كتابة أدبية توازن بين السرد والحماسة، والنظر العقلاني إلى الأحداث، والتحليل الذي يحاول أن يربط بين مختلف العناصر، الداخلية والخارجية، التاريخية والمستقبلية، الموقف الوطني التحرري والترابط القومي بين الثائرين في الداخل الفلسطيني وبين المناضلين والمثقفين الثوريين الآتين من الجوار العربي.

هذا التقرير الأخير في الكتاب، مرسل من الحزب الشيوعي الفلسطيني إلى قيادة الكومنترن التي تسلمته في أول تشرين الثاني/نوفمبر 1937، تسرد فيه قيادة الحزب وقائع من ثورة الشعب الفلسطيني خلال سنة 1936، والإضراب العام الذي استمر ستة أشهر، ورؤية الحزب لهذه الثورة، والمساهمة الكفاحية العملية للحزب في الثورة، في مختلف مجالاتها السياسية والاجتماعية والعسكرية، على السواء.

يبدأ التقرير بهذه الجملة التي تتضمن خلاصة مكثفة لمسار الأحداث وتاريخيتها:

"إن الثورة الأخيرة التي قام بها الشعب العربي الفلسطيني في سبيل الدفاع عن خبزها وحقوقها الديمقراطية بينت درجة تطور الحركة التحريرية الوطنية في الأقطار العربية ونضوج التفكير في مقاومة الاستعمار بأساليب الكفاح الثورية، كما أظهرت هذه الثورة بجلاء درجة نمو الإدراك الوطني بين جماهير الشعب العربي ومقدار قوة التضحية والثبات الكامنة فيه" (ص 446).

هذه رؤية عامة لحدث ثورة 1936، وجديدها الكفاحي ومعناها. فإذا دخلنا، عبر هذا التقرير، إلى بعض التفاصيل والعوامل التي أحدثت هذا الانفجار الثوري، نجد تحديات أكثر دقة وأكثر وضوحاً في الموقف:

- "تمادي الاستعمار البريطاني في تنفيذ سياسة الصهيونية وظهور هذا التمادي بشكل واضح في الخمس سنوات الأخيرة التي تدفقت فيها الهجرة اليهودية بصورة هائلة. وقد ظهرت الصهيونية بشكل واضح بصورتها العدائية الاستفزازية التي تجلت في حملات احتلال العمل والأرض وفي مقاومتها مقاومة مكشوفة لطلبات الشعب" (ص 446).

ويورد التقرير مطالب أساسية لهذه الثورة تكتفت في ثلاثة بنود:

1 - إيقاف الهجرة الصهيونية.

2 - إيقاف بيع الأراضي.

## 3- تشكيل حكومة وطنية.

\* \* \*

[.. هنا، يطيب لي، ويهمني جداً، أن أدخل إلى وقائع هذا التقرير وقائع من خارجه، لكنها تشكل جزءاً أساسياً في صلب الأحداث نفسها، وفي صوغ هذه المطالب الثلاثة بالذات.. وإليكم هذه القصة المضيئة المعبرة عن المشاركة الفعالة للمثقفين الثوريين العرب في الحركة العملية للكفاح العربي:

ففي سنة 1935، سافر الكاتب والمفكر اللبناني الكبير رثيف خوري إلى فلسطين، حيث تولى تدريس الأدب العربي في إحدى المدارس الخاصة في القدس. وهناك تعرّف إلى مجموعة من الشباب الوطني وقادة في الحركة الوطنية والشيعوية في فلسطين، منهم: خليل البديري، وعبد الله بندك، ومخلص عمرو، وتوفيق طوي.. والتقى كذلك عدداً من المثقفين التقدميين القادمين أيضاً من لبنان، منهم: الأديب سليم خياطة، والكاتب رجا حوراني (وكانا يتعاونان في إصدار المجلة الفكرية التقدمية "الطليعة" في بيروت).. فشكّل هؤلاء، مع مثقفين آخرين، تجمعاً وطنياً تقدمياً عربياً أطلق تياراً واسعاً في الوسط الثقافي والطالبي والشبابي ضد الاستعمار الإنكليزي الصهيوني، ولنشر الثقافة التقدمية والاشتراكية.

وجاءت سنة 1936 عاصفة في حياة فلسطين والبلاد العربية، وعاصفة أيضاً في حياة رثيف خوري وتطوره الكفاحي والفكري والثقافي. فقد بدأ الإضراب الوطني الكبير في فلسطين، الذي استمر ستة أشهر، ورافقه انتفاضة ثورية واسعة في مختلف المدن والقرى الفلسطينية.. وكانت مشاركة رثيف خوري فعالة في هذه الأحداث: شارك في التجمعات والتعبئة والتشديدات والتظاهرات. كما أخذ يتنقل بين هذه المدن والقرى الفلسطينية، يخطب في الجماهير، بصوته الهادر، محرّضاً على مواصلة الانتفاضة ضد الإنكليز والصهيونيين والمتعاونين معهم. وواصل التحريض بالكتابة:

ففي تلك السنة نفسها، وفي لهيب المعارك والمواجهات، وضع رثيف خوري كتيباً كفاحياً عن الثورة الفلسطينية، جعله بعنوان "جهاد فلسطين"، وأصدره بتوقيع "الفتى العربي"، وصاغ في هذا الكتاب ما يشبه برنامجاً للثورة الفلسطينية مستمداً من الأحداث ومن مواقف المشاركين في الانتفاضة والإضراب. وشارك رثيف وصحبه في صوغ مطالب الانتفاضة الشعبية، في ثلاثة بنود مكثفة يسهل تداولها وحفظها. وقد أشار رثيف خوري، في كتابه الكفاحي هذا، إلى ظروف صوغ هذه المطالب التي صارت هي مطالب الحركة الثورية نفسها: "... قلنا إن المثقفين السلميين ما لبثوا أن اندمجوا في حركة الإضراب، فكانوا لها قوة من وجوه كثيرة. كانوا لها قوة بما شجعوا من معنويات الشعب عن طريق الكتابة الصحفية والخطابة والبيانات وتنظيم اللجان والإمدادات، وبما اختطّوه من مطالب واضحة للإضراب سرت على ألسنة الشعب فوجهته توجيهاً مستقيماً وأنقذته من بداءة حركته العفوية المرتبكة... فلننظر ما هي هذه المطالب [يتابع رثيف خوري]: في بيان أذاعه جماعة من أطيب المثقفين، مهروه بامضاءاتهم، كانت أهم المطالب المعروضة، التي تبناها الشعب في وقت وجيز وأصبحت شعاره، ثلاثة:

1- وقف الهجرة اليهودية وقفاً باتاً.

2- وقف بيع الأراضي للصهيونيين.

3- إقامة حكومة وطنية دستورية.

"ومما جاء في المطالب أيضاً: تجريد الصهيونيين من الأسلحة" (كتاب "جهاد فلسطين" لرثيف خوري، ص 13).

\* \* \*

.. إذاً، لقد أوردت هذه الفقرات، أعلاه، من كتاب رثيف خوري "جهاد فلسطين" الصادر في سنة 1936، لا لتبيان مشاركة رثيف خوري الفعالة في أحداث الثورة فحسب، بل أيضاً للدلالة على فعالية مشاركة المثقفين الثوريين العرب.. إذا هم شاركوا بفعالية في الثورة.. وللدلالة، ثانياً، على أن مشاركة مناضلين من عدة دول عربية في الثورة الفلسطينية توضح أن القضية، والانتفاضة، في جانب أساسي منها، هي قضية الحركات الشعبية العربية، وذلك قبل أن تمتد أيادي وأظافر الحكام العرب لتمعن فيها استغلالاً وتمزيقاً وتقطيعاً، وتسبباً - واعياً - بتضييع القضية، وأهلها.

فإذا عدنا إلى التقرير المرسل من الحزب الشيوعي إلى الكومنترن (1 تشرين الثاني/نوفمبر 1937) نقرأ فيه - إلى جانب الحماسة للثورة، والفرح الكفاحي بها - تعادلاً لمجالات مشاركة الجسم الأساسي للحزب في الأحداث: التظاهرات، والمعارك، والدعم، والقتال، وتأمين ما يمكن تأمينه من وسائل مقاتلة المحتلين من الإنكليز والعصابات الصهيونية المسلحة.

وبين تعداد مجالات مساهمات الحزب في الأحداث نقراً، مثلاً، هذه الفقرة عن "المساعدة التي قام بها حزبنا في الثورة المسلحة، فقد ساعد على تجنيد الفلاحين والشباب في المدن للالتحاق بالثورة، كما قام بجميع الوسائل لمساعدة الثوار، فأرسل بعض الرفاق للعمل بينهم خصوصاً في قضاءي نابلس وطولكرم، وقدم للثوار اختراعات فنية عممها في أكثر جبهات الثورة، ساعدت على رفع المقدرة الحربية للثوار. ثم قام الحزب بتنظيم حركة الثورة في الجبهات الجبلية المتأخرة، كما في الخليل وحيفا، واستنضهم همهم للعمل والاشتراك في الثورة المسلحة" (ص 450).

وأشار التقرير إلى الاشتراك الفعّال لمندوبي الحزب في المؤتمرين الأول والثاني "للمتقنين الوطنيين الثوريين"، اللذين عقدا في القدس، وأصدرا العديد من المقررات والبيانات (وإنني أميل إلى استنتاج يشبه اليقين أن هذا المؤتمر هو الذي أشار إليه الأديب الكبير رثيف خوري في كتابه، إذ شارك هو في أعماله، وفي صوغ تلك المطالب التي تبناها المؤتمر ثم تبنتها جماهير الثورة... وهذه المطالب هي التي وردت في تقرير الحزب، بالنص نفسه والتعداد نفسه، كما وردت في كتاب رثيف خوري "جهاد فلسطين").

• .. على أن هذه المشاركة الفعّالة للحزب في مختلف مجالات العمل الكفاحي خلال ثورة 1936، والتي مارست تأثيرها الفعال في تصليب قوى الحزب، وزيادة حضوره الجماهيري في الوسط العربي، وتأثير النشاط العملي هذا في الوضوح الفكري لدى تحليله الأحداث... هذا الاندفاع الكفاحي كان له، كذلك، تداعياته السلبية - المنتظرة - لدى العديد من الأعضاء اليهود في الحزب، الموجودين خاصة في الوسط اليهودي.. فتصاعد بروز الخلافات والانتقادات والتكتلات المعارضة، داخل الحزب ومن حوله، وارتفعت الصرخات القائلة - كما أورد التقرير - "إن خطة الحزب هذه ستؤدي إلى انقسام الحزب إلى شطرين: (عربي وطني)، و(يهودي صهيوني)". وقال المعارضون هؤلاء إن الحزب فقد استقلاله، واعتبروا أنه أصبح في ذنب الحركة الوطنية العربية، "وعارضوا شعار حل فرقة الهاغاناه... [و]شعار توقيف الهجرة... محتجين بأن الجماهير اليهودية لا تفهم هذه الشعارات" (ص 454). ويعترف التقرير بأن قيادة الحزب كانت تفتقد المرونة وتشكو ضعف التفهم الضروري لخصوصية هذه المواقف والنزعات لدى الرفاق في الوسط اليهودي، في بلد زاهب إلى.. التقاسم، والتقسيم، والاحتراق، والترحيل، والاحتلال، والسيطرة الصهيونية - عملياً - على كامل التراب الفلسطيني.

هذه الخلافات والتناقضات (الحتمية في الحزب الشيوعي الفلسطيني، بشأن الثورة الفلسطينية ضد الاحتلال البريطاني والجماعات الصهيونية المسلحة) - هذه الخلافات لم تحدّ قط من المشاركة الفعّالة للحزب في هذه الثورة، ولم تحجب الرؤية الواضحة في تقويم الحزب السياسي والفكري لأحداث الثورة والمشاركة فيها. وكما جاء في التقرير، فإن "تلك الثورة... تعتبر حلقة من سلسلة الكفاح ضد الاستعمار التي يسير فيها الشعب العربي الفلسطيني، إلا إن هذه الثورة كانت أبعد في تأثيرها ونتائجها لأنها كانت أوسع وأقوى من كل ما سبقها... فالإضراب الذي انفجر دون سابق إنذار تحول بسرعة إلى إضراب منظم. وإن التطور السريع للحركة وانتقالها من إضراب سياسي عام إلى ثورة مسلحة، وتحول القضية الفلسطينية من قضية إقليمية إلى قضية عربية عامة، وتدخل ملوك العرب، كل هذه كانت نتيجة لإصرار الشعب الفلسطيني في كفاحه ووحدة جماهيره" (ص 447). لكن، ربما هنا بالذات (أي: تدخل ملوك العرب!) أخذت تتجلى، في العلن كما في السر: المساومات والتخاذل وتخوف هؤلاء الملوك والحكام العرب من انتصار الثورة، وخوفهم الغريزي والطبقي من تنامي الوعي الثوري، وحتى المزاج الثوري، في الوسط الجماهيري العربي!! هذا، وغيره كثير، ساهم في التأسيس للانحدار نحو هزيمة ثورة 1936 في فلسطين.. وهزائم الأنظمة والجيوش العربية، التي أوهمت الناس بأنها عبر حرب 1948 ستحرر فلسطين!! فأضاعت فلسطين!! وتوالت هزائمها - هزائمنا - منذ ذلك الزمان الدامي حتى يومنا هذا. ■

(\*) كاتب لبناني.

(\*) التشديد هنا ضمن الاقتباس هو من المراجع، وأيضاً حيثما يرد في سائر الاقتباسات.

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: [majallat@palestine-studies.org](mailto:majallat@palestine-studies.org)  
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعتها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:  
[http://www.palestine-studies.org/ar\\_index.aspx](http://www.palestine-studies.org/ar_index.aspx)